نحن والمستشرقون

الانانية القومية وتحرير الفكر

بقلم الدكتور حسين الهراوى

إذا قدر لك أن تطلع على عدة كتب تاريخية أو أدبية مما يطبع فى مصر فى العهد الحاضر مثلا، تجد أن جميع هذه الكتب (إلا القليل منها) تنقل عن بعضها، فكأن الواحد منها مرآة للأخرى، من حيث الأسلوب والمعلومات والترتيب والتبويب ، وترى أن الموضوعات المبتكرة قليلة لاتشفى غلة، ولا تروى صاديا ؛ وإذا اتجهت إلى دار الكتب المصرية أو دور الكتب الكبرى، وجدت هناك كتبا وبحوثا لم تمسها يد، ولم يعرف ما فيها إنسان، وكل قيمتها الأدبية والتاريخية لاتتجاوز أنها مخطوطة فى القرون الأولى الاسلامية، أما محتوياتها وما فيها من كنوز فنية علمية فليس للباحثين نصيب فى هذا الشأن .

ولذلك نرى أن التاريخ الاسلامى والعبقرية المصرية مازالتا فى موقفهما الأول منذ النهضة المصرية التى شملت جميع مرافق الحياة الادبية والاجتماعية الآن ، غير أن هذه النهضة الفكرية لم تتجاوز فى نظرنا حدود النقل والترجمة ، أما المباحث المبتكرة، فهى قليلة العدد إلى حد يستدعى الدهشة والعجب .

فهل السبب راجع إلى أن جمهور القراء لايشجع على البحث ونشر ما حوته جدران دور الكتب من كنوز هى أشبه شىء بكنوز آثار قدماء المصريين التى لم تر الضوء إلى يومنا هذا ؟ أم أن السبب أن هواية البحث الخالص ليست متغلغلة فى النفوس ؟ أم أن الأفكار لم تتجه إلى هذه الناحية ؟

ليكن السبب مهما كان : فاننا لازلنا مقصرين فى هذه الناحية ، وهى ناحية البحث المبتكر او دراسة الكتب المخطوطة ، لنخرج منها ذلك العلم المقبور والنور المستور.

ولكن هناك فئة خاصة فى أوربا من القوم الذين يحترفون تدريس اللغات الشرقية للطلبة الأوربيين ويحسنون الألسنة الشرقية، أطلقوا على أنفسهم نعت المستشرقين ، تقدموا عنا فى مثل هذه المباحث، ونشروا كتبا قيمة كان النسيان أسدل عليها ستارا كثيفا من الخفاء ، ففازوا

بفضل التقدم ، واكتسبوا شهرة أدبية واسعة ، وزاد في قيمتها نوع من (البروبوجاندة) والدعاية الغربية ، فأخذ الناس يظنون أن هؤلاء هم أئمة اللغة والأدب ، وأقبل الشرقيون على دراسة مباحثهم ، وقد سمعنا من نفس المصريين من يقول: إن من المستشرقين من يعرفون اللغة العربية أكثر منا ، ويفهمون في ديننا أكثر من كثير منا .

والحق أقول : إنني كنت أسمع هذه الآراء والمناقشات ، وأنا لا أبين رأياً ، ولا أنحاز لجانب ، حتى قدر لي أن أبحث بعض مواضيع تاريخية أو اجتماعية أو دينية ، فكنت أعثر فجأة على آراء المستشرقين في الشرق والاسلام ، فتعتريني هزة الألم ، إما لخطأ فاضح ، أو عدم فهم ، أو تعصب فيما يكتبه المستشرقون عنا ، ولذلك عنيت بتقليل من الجهد أن أدرس أثر هؤلاء المستشرقين .

فالمستشرقون كلهم ممن يكونون أساتذة اللغات الشرقية أو العربية مثلا للطلبة الأوربيين ، وهؤلاء الطلبة هم الذين يتعلمون هذه اللغات ، تمهيداً لتوظيفهم في الأقطار العربية الرازحة تحت نير الاستعمار الأوربي ، كما أن المستشرقين يؤلفون كتباً لرواد الشرق من الأوربيين .

ومهمة كهذه — كما ترى — لها الصبغة الاستعمارية في أوضح شكل وأفصح مظهر ، لجديرة بأن نتيقظ لما ألف فيها وما كتب ، ولذلك لا نخطىء أن نستنتج أن الغاية من وراء هذا العلم هي المادة والاستعمار ، وتقبيح الشرق وعاداته ومظاهره .

لذلك فهمت لماذا تطعن الكتب الاجتماعية الأوربية التي تبحث في مسائل الزواج وتعدد الزوجات في الدين الاسلامي طعناً جارحا خارجا عن حد المعقول ، حتى لو فرضنا أن قائلها متعصب ما برأناه من اختراع أحط أنواع التفكير : فمثلا — في كتاب (مرشال) عن الزواج يقول: إن الحجاب منتشر في مصر إلى درجة أن الأم لا يسمح لها أن ترى وجه ابنتها بعد سن الرابعة عشر .

ويقول: إن الفلاحة المصرية قد تعرى كل جسمها أمام الرجال ، أما وجهها فلا يراه إنسان .

وقرأت له في كتاب آخر وصفا للنبي يمتنع الأدب عن ذكره أو ترجمته .

ولماذا أذهب بك بعيداً في بحث كتب ومواضيع قد يكون القارىء بعيدا عنها ؟ إن أشهر المستشرقين رجل يقال له (مرجوليوث) كان في مصر منذ بضع سنين ، فهذا الرجل له مؤلفات كثيرة عن الاسلام كلها طعن جارح ، وفكر خاطىء ، وتعصب ممقوت ، فهو يتشكك في النبي نسباً ، أبا وأما ، ثم يتشكك في كل ناحية من نواحي الدين : إما بالطعن الجارح ، أو الغمز واللمز .

فهذه الأمثلة عن جماعة المستشرقين في تأليفهم ، تبين لك أنهم إذا كانوا حسني النية يراعون بيئتهم ويتلمسون رواج بضاعتهم قبل أن يعنوا بالحقائق ، ولذلك كانوا بعيدي المدى عن تفهم روح العربية أو الكناية عن الموضوعات الشرقية بنفس الروح التي يكتبون بها ما يختص ببلادهم .

ولما كان الشرق يرزح كثيرا تحت نير الاستعمار ، وكانت العربية الاستعمارية تتجه بالفكر

الشرق إلى أن يكون عبداً للفكر الغربي ، فترى فئة المتعلمين منا ينظرون إلى الغرب نظرة الاكبار والاعظام، مستسلمين لآرائه استسلاماً من غير قيد أو شرط، ونشأ عن ذلك أن نفوسهم تشربت التشكيك في أوطانهم وعقائدهم وأخلاقهم، فأخذنا نرى طغياناً هائلا جارفا من الأفكار الغربية يستأثر بالفكر الشرقي ، والروح الشرقي ، والعائلة والوطنية الشرقية .

أما أثر استعباد الفكر الشرقي فتجده واضحاً في المباحث الاجتماعية الشرقية ؛ فترى مثلا من يبحثون في الأدب الشرقي يستشهدون بمستشرق، وهذا المستشرق ليس له فضل غير البحث في الكتب العربية مثل التي في متناول أيدينا، فلماذا لا نرجع إلى المنهل الذي ورد منه، ونستنتج منه بقدر استطاعتنا ؟

وأما في الاجتماعيات الشرقية فقد طغى علينا الشيء الكثير من فتنة الغرب ، فترى قصصنا الاجتماعية وفن الروايات عندنا مترجماً عن اللغات الأجنبية، لا يخرج عن: موضوع خيانة الأزواج، وحب العذارى ، وازنا ، وما إليه من أنواع مغريات القراءة في الشباب ، مما يؤثر في أخلاقنا وقوميتنا، وقد خرج السفور إلى أبشع مظاهر المدنية الغربية من المراقص وغيرها، مما يشكو منه الغربيون أنفسهم، ومما زاد نسبة الطلاق ببلادهم، وأكثر عندنا الحوادث التناسلية والنسائية.

وأما الأثر في العائلة المصرية فانك تراه واضحاً في انتشار الزواج بالأجنبيات اللاتي لسن في مستوى رجالنا المادي والاجتماعي، وترى أن أكبر عثر لشاب منا ، أن يتزوج بأجنبية ، مهما كان نوعها، تناخراً وتيها على أقرانه .

هذه كلها أثر من آثار الاستعباد الفكري الذي أدخله الغرب إلى الشرق، وأما في الغرب فلا زالت النظرة إلينا هي تلك النظرة التي يصورها المستشرقون ، فتجد الشاب المصري في البلاد الأجنبية ككل شرقي يطلق عليه الجنس الملون (أي ذا اللون الأسمر) ويسمع عن نفسه وعن بلاده ما لا يخطر على قلب إنسان .

كل ماذكرنا هو الموجة الهائلة التي اكتسح الغرب بها أفكار الشرقيين، ولذلك وجب أن تصادمها موجة أخرى من الشرق، هذه الموجة الأخرى هي الأنانية القومية في الأدب والاجتماع والصناعة والاعتزاز بالنفس وتحرير الفكر الشرقي من أثر هذا التخدير الطويل الأمد ، فاننا نزعم أن الفكر الشرقي لا يقل عن الغربي، ولكن ينقصه فقط تلك الأنانية القومية في الأخلاق والعادات والآداب : وليس من وسيلة لادراك ذلك إلا بالأنانية الأدبية والتاريخية في التأليف والنشر .

والذي نراه أن أدبنا الحي لا ينهض إلا باستقلال الفكر والأنانية القومية والوطنية ، فليس العلم احتكاراً، ولعمري إن مصر اليوم لا تقل في تربية شبيبتها عن أوربا، فلدينا من يتقنون

الفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها أكثر مما عند الغربيين، من الذين يتقنون اللغات الشرقية، إذن فليكن لدينا فئة تدعو الناس إلى طرق التعليم القومى المستقل، كما فعل المستشرقون بعلوم العرب وآدابهم وكتبهم.

ولكن خطأنا الفاضح أننا نعتمد على الغرب حتى فيما يخصنا من التاريخ القومى، وما يخص بلادنا من أدب واجتماع فنستمد تاريخ قدماء المصريين من الكتب الافرنجية، بينما كتب المرحوم أحمد باشا كمال الخطية لازالت رهينة المكاتب والدواليب؛ وتأثر تاريخ محمد على باشا والثورة العرابية فى كتب أجنبية، ولذلك كانت الأغلاط التاريخية فاشية فى كتبنا مما ستره عنا الفرنج.

أعطيك دليلا واحداً أستطيع أن أعززه بألف مثله:

أنت دائما تقرأ أن مصرفى عهد المغفور له إسماعيل باشا، كانت امبراطورية وغزت الحبشة؛ ولكنك لاتعلم من هذه الغزوة شيئاً، فاذا رجعت إلى مذكرات عرابى عنها علمت أن إسماعيل باشا كان توافاً إلى نجاحها فبعث إليها بنجله، ولكن القيادة كانت لمرتزقة الأمريكان الذين لايعرفون شيئاً فى فنون الحرب، فباعوا الجيش المصرى للنجاشى بالمال، واستولوا على المال الذى خصصه إسماعيل باشا لنجاح الحملة.

وتستطيع إذا قارنت كتب التاريخ العربى والقومى أن تعرف مقدار مابينهما من تفاوت فى أثر الروح القومية، مما يعجبه عنك فى الكتب الأجنبية أثر الاستعمار والمنفعة، واستعباد الفكر الشرقى.

وإذا نظرت إلى القطر المصرى خاصة لوجدته قطراً دولياً، فى لغته ونزعته، فالفرنسية والانجليزية والألمانية وكل لغة تقريباً متغلغلة فى البيوت والتجارة، خصوصاً فى الطبقات الراقية؛ وإذا قارنت ذلك بأصغر الدول الأوربية كاليونان وغيرها، وجدت أن مصر لاتقل عنها مدنية، وتزيد عليها ثروة وتعليماً؛ ولكنك تجد السر كل السر فى الأنانية القومية وتحرير الفكر.

فنحن هنا نفكر تفكيراً متشعباً، وليس مصوباً للفائدة؛ وعجهودنا الأدبى ضائع لتعدد اتجاهاته؛ ولذلك تجد قوميتنا مرقعة كالثوب البالى، وأدبنا الكتابى الحى، كالطلقات الطائشة التى ليس لها هدف ولا مرمى.

وليس فى رأينا من وسيلة للنهضة الحقة إلا تركيز اتجاه الفكر بعد تحريره إلى الأنانية القومية والشعور الذاتى.

الدكتور

حسين الهراوى